البنية الصرفية
وأثرها في التعبير الاستعاري

د/خالد بوزياني
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة عمار ثليجي الأغواط

الملخص:

تتمحور المسألة التي أطرحها في هذا البحث في مدى التأثير الذي تمارسه البنية الصرفية في التشكيل الاستعاري كأداة من أدوات بناء الصورة الشعرية من حيث الجوانب االدلالية.

ذلك أن كل البنى الصرفية تساعد على إعادة تشكيل المعاني وترتيبها وفق ما تقتضيه السياقات من خلال جملة من البدائل التي يعتمد عليها الشاعر.

إن أول سؤال يمكننا طرحه هنا: ما هو التأثير الذي يحدثه التشكيل الصرفي على التعبير الاستعاري والصور البلاغية بصفة عامة، وما هو النشاط الدلالي الذي تمنحه البنية الصرفية للصورة الشعرية؟

إن صفة الفاعل والمفعول والصفة المشبهة وصيغ المبالغة والتفضيل وجميع الأبنية الصرفية الأخرى تساعد على تشكيل المعنى والدلالة بفضل ما تمارسه هذه العناصر من نشاط على المستوى المعجمي وعلاقته بتأديته المعنى.

فمن حيث الصور الإعرابية [1] نجد أن هذه الصفات تشبه الأسماء والأصل فيها الإعراب وذلك بخلاف الحروف والأدوات والأفعال التي هي مبنية، وتتميز الصفات عن الأفعال في توفرها على معان توجب الاختلال كالفاعلية والمفعولية والإضافة، أما الأفعال والأدوات فإن صيغها تدل على معانيها، كما تقبل الصفات الجزم والإعراب والتعريف والتصريف، فنقول: الضاربان زيدا والضاربون زيدا[2]. وفي قوله عز وجل «والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة»[3].

ويتميز الجانب الدلالي في الاسم كونه يمكن أن يعرف على شيء يكون دالا على معنى نفسه وذلك خلاف الصفة التي لا تدل على مسمى وإنما عن مطلق حاضر أو غائب بواسطة قرائن يتضام معها ويفتقر إليها[4].

وإن كانت الصفة لا تدل على معنى في ذاته فإنها تلعب دورا خطيرا في تلوين المعنى والدلالة عبر النشاط الصرفي وأثره في تشكيل الصورة الأدبية عن طريق الصيغ المختلفة والأدبية المتنوعة.

وسأتتبع بعض الظواهر الصرفية فيما يلي:

اسم الفاعل:

اسم الفاعل من الصيغ التي لها تأثير كبير على المعاني وذلك أثناء التشكيل الصرفي للصورة البلاغية، وسأتتبع بشيء من الاختصار ما جاء عند سيبويه ثم أحاول أن أركز على ما تحدثه هذه الصيغة من دلالة على المستوى الشعري والصورة بصفة عامة.

يرى سيبويه[5] أن اسم الفاعل الذي يجري مجرى الفعل المضارع في المفعول يؤدي المعنى نفسه كقولنا، هذا ضارب زيدًا غدًا معناه وعمله مثل هذا يضرب زيدًا غدًا، ونقول هذا ضاربٌ عبد الله الساعة فمعناه وعمله مثل هذا يضرب زيدا الساعة واسم الفاعل في هذه الحالة يلزمه التنوين.

كقوله امرئ القيس :

إني بحبلك واصل حبلي وبريش نبلك رائش نبلي

إن صيغة اسم الفاعل في **واصل ورائش** أضفت على المعنى شحنة عاطفية بفضل دلالة الاستمرارية والتواصل بين الحبلين ربما قد لا يؤدي الفعل مثل هذه الوظيفة الانفعالية التي تحققت بواسطة التشكيل الصرفي للصورة في بيت امرئ القيس، وإن كان الفعل يؤدي المعنى نفسه كما ذكر سيبويه.

ويقول زهير:

بدا لي أني لست مدرك ما مضى ولا سابقا شيئا إذا كان جائيا

وهنا أيضا ندرك ما أحدثته صيغة فاعل في(سابقا) من أثر جمالي على المعنى ومن وقع عاطفي يحمل معنى العجز أمام الزمن الذي لا يمكنه أن

يغير فيه شيئا يذكر ماضيا كان أم مستقبلا، يضاف إلى ذلك ما يسببه التنوين من موسيقى تجعلنا تنجذب أكثر إلى محاولتنا الاقتراب من ذات الشاعر المتألمة.

وقد يحذف التنوين للتخفيف بدون أن يغير ذلك في المعنى من شيء، يقول سيبويه في ذلك: «وليس بغير كف التنوين إذا حذفته مستخفا شيئا من المعنى ولا يجعله المعرفة»[6]، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى:«كل نفس ذائقة الموت»[7]، وقوله عز وجل: إنا مرسلو الناقة، وقوله أيضا«ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم»[8]، إن المعنى الذي أحدثته صيغة ناكسوا غاية في البلاغة والبيان بفضل التصوير القرآني للهيئة التي يكون عليها المجرمون عند ربهم وهم مطأطئو رؤوسهم يغشاهم الندم والحسرة والألم، والصورة بهذا الشكل أحدثت وقعا انفعاليا ينذر المجرمين بسوء عاقبتهم ويتوعدهم بالعذاب الأليم.

وفي قوله تعالى:« فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم» [9].

إن عبارة عارض ممطرنا توحي بالخوف والفزع من العذاب وصيغة ممطرنا جاءت على وزن مفعل اسم فاعل للفعل المزيد أفعل أمطر و«نا» ضمير متصل في محل نصب مفعول به لمعمول اسم الفاعل، أما من الناحية المعجمية فإن لفظة (مطر) تدل على العذاب، وقد يكون المطر ماء أو حجرا لقوله تعالى:« وأمطرنا عليهم حجارة»، إن العلاقة بين البنية المعجمية والبنية الصرفية للكلمة هي التي حددت العلاقة الدلالية الأساسية ليصبح المعنى من اسم الفاعل عارض الوعيد والعذاب الأليم.

وقد تحدث سيبويه[10] عن اسم الفاعل الذي يعرّف بالألف واللام ينصب الاسم الذي يليه أو يجره كقولنا: هذا الشراب زيدا، كقوله عز وجل:«والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة»[11] وهنا أيضا نلاحظ مدى تأثير الصيغة ملتقطي جاءت على وزن مفتعلي لتحدث بذلك صورة من يلتقط من القمامة ما يتركه الناس، وهي تجسيد له تأثيره المعنوي لغرض الهجاء، والصورة بهذا الشكل ذات تأثير بالغ كون الالتقاط من الناحية المعجمية هو أخذ ما رمي في الأرض وفيه معنى الإذلال والمهانة.

صيغ المبالغة في اسم الفاعل:

لنتأمل أبيات الخنساء:

وإن صخرا لمقدام إذا ركبوا و إن صخرا إذا جاعوا لعقار
جلد جميل المحيّا كامل ورع وللحروب غداة الروع مسعار
حمال ألوية هباط أوديــة شهّـاد أندية للجيش جرار

لقد عرفت الخنساء كيف تشكل الصورة حول خصال صخر بواسطة الأبنية الصرفية لصيغ المبالغة في اسم الفاعل [12].

إن مبدأ المبالغة في هذه الأبيات أساسه ذلك التشكيل الصرفي لأبنية اسم الفاعل وقد وردت على الشكل الآتي :

مسعـــار مقـــدام	مفعـــال
عقّـــار حمـــال هبـــاط شهـــاد جـــرار	فعـــال
جـــلد ورع	فعـــل

إن هذه الصيغ لو جاءت على بنية فاعل لما أدّت هذه الوظيفة الشاعرية التي أحدثت هذا الوقع القوي على مستوى الدلالة والمعنى فلو قالت الخنساء: قادم بدل مقدام أوشاهد بدل شهاد لما حققت الصورة في هذه الأبيات تلك الشحنة العاطفية والانفعالية التي تشكلت من خلال البنية الصرفية لصيغ المبالغة في اسم الفاعل: إضافة إلى ما سببته لفظة مسعار على المستوى المعجمي حيث تعني النار الملتهبة ومنها كلمة السعير، إن القيمة الجمالية التي تشكلت من هذه الصيغة أضافت للصورة.

الصفة المشبهة وأثرها في التشكيل الجمالي للصورة البلاغية:

الصفة المشبهة من الأبنية الصرفية التي تقترب دلاليا إلى التشبيه بل تزيده رونقا وجمالا، وهي لا تعمل عمل الفعل كونها ليست في معنى الفعل المضارع، ولذلك شبهت بالفاعل فيما عملت فيه.

وتقع الصفة المشبهة مضافا كقولنا: هذا حسن الوجه وهذه حسنة الوجه «فالصفة تقع على الاسم الأول ثمّ توصلها إلى الوجه و إلى كل شيء من سببه، كما نقول: هذا ضارب الرجل وهذه ضاربة الرجل إلا أن الحسن في المعنى للوجه والضرب ههنا للأول»[13]

وهنا نلاحظ مدى تأثير الصفة المشبهة في تشكيل التشبيه في قول النابغة:

و نمسك بعده بذناب عيش أجب الظهر ليس له سنام

فعبارة أجب الظهر أي هزيلا والصورة هنا تشبيه، حيث شبه النابغة حال قومه وما يصيبهم من ضيق في العيش بعد وفاة النعمان بالبعير الهزيل الذي لا سنام له، والصورة غاية في البراعة والرونق بفعل التأثير الممارس من البنية الصرفية في صيغة الصفة المشبهة من أجب .

لقد لعب التشكيل الصرفي للصورة الشعرية في الشعر العربي القديم دورا مهما عن طريق الصفة المشبهة، يقول أبو زبيد الطائي [14]:

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة محطوطة جدلت شنباء أنيابا

فهذا التشبيه غاية في الحسن، فتشبيهه لهذا الفتاة بكل مقاييس الجمال عند العرب وذلك بفضل ما تمدنا به هذه البنى الصرفية المتمثلة في الصفة المشبهة والتي اكتسبت الدلالة الشعرية تشكيلا جماليا

للعبارة في قوله شنباء أنيابا دلالة طيب الثغر وبريقه وهي صورة حسية تجسدت فيها معاني الجمال و الحسن لهذه الفتاة.

وقالت خرنق وهي من بني قيس [15] :

لا يبعدن قومي الذين هم سم العُداة وآفة الجزر

النازلون بكل تعرك و الطيبون معاقد الأزر

تصف الشاعرة قوة وبأس قومها فهم النازلون في كل معترك لا يخشون الموت ولا يتأخرون في الإقدام على الأعداء بكل قوة و شجاعة ثم بينت في الشطر الثاني عفتهم و شرفهم عبر الكناية في معاقد الأزر التي لا تحل لفاحشة، فالدلالة هنا مرتبطة بما أحدثته الصفة المشبهة في النازلون والطيبون.

أبنية الأفعال الثلاثية المزايدة وعلاقتها بالمعنى والدلالة:

تدخل بعض حروف الزيادة على الأفعال الثلاثية فتلون المعنى وتضيف إليه معنى جديدا من خلال البنية الصرفية التي تتشكل فيها هيئة الفعل ومن ذلك:

1- بناء (أفعل):

ويدل على التعدية والصيرورة، أو الدخول في الشيء ومصادفة الشيء على صفته وقد يفيد القوة والسلب أو الإزالة والتعريض.

2- بناء(فعل):

ويفيد التكثير والتعدية وإثبات الشيء أو إقراره ونسبة الشيء إلى أصل الفعل والسلب، كقولنا كسرته وقطعته ومزقته وقوله تعالى: «كل ممزق»[16]

يقول سيبويه:«و اعلم أن التخفيف في هذا جائز كله عربي إلا أن فعلت إدخالها هنا لتبيين الكثير»[17]

يقول عز وجل:«وغلقت الأبواب»[18] إن صيغة الفعل تدل على تكثيف الحدث فلو جاء الفعل على صيغة فعلت (غلقت) لما أدى الوظيفة نفسها التي أدتها بنية فعل من إحكام لغلق الأبواب ثم إن صيغة فعل لا تتناسب دلاليا مع كلمة الأبواب و نميز بين أربع جمل:

1- غلَقت الأبواب 3- غلَقت الباب

2- غلَّقت الأبواب 4- غلَّقت الباب

من الناحية الدلالية الجملة الثانية تتناسب مع المعنى لأن غلق الباب إذا كان مفردا أما مع الجملة الرابعة فالمعنى يتكثف أكثر حين يحكم غلق الباب على سبيل المبالغة، أما الجملة الأولى فلا تتناسب دلاليا مع المعنى ذلك أن صيغة غلق قد تنطبق على المفرد وأكثر من تطابقها مع الجمع عكس الجمل الثالثة التي يتحقق فيها التناسب الدلالي.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى:«و فجرنا الأرض عيونا»[19]

وقد يأتي المصدر من الفعل فعل منصوبا مثل كسرته تكسيرا وعذبته تعذيبا وقد يأتي مجرور الأول فتقول كلمته كلاما وحملته حمالا[20] كما في قوله تعالى:«وكذبوا بآياتنا كِذابا»[21]

3 ـ بناء (تفاعل):

ويفيد المشاركة في الفعل بالتساوي كقولنا: تقاتل زيد مع الأسد أي اشتركا في القتال دون أن تكون الغلبة لأحدهما على الآخر.

4- بناء (فاعل):

ويفيد المشاركة أيضا مع الغلبة للفاعل كقولنا:قاتل زيد الأسد أي اشتركا معا في القتال و كانت الغلبة لزيد كقوله تعالى:«قاتلوهم يعذبهم الله...» [22] وهذا معنى قول سيبويه: «وقد تجيء فاعلت لا تريد بها عمل الاثنين ولكنهم بنوا عليه الفعل كما بنوه على أفعلت»[23]

5- بناء (افتعل):

يدل على المطاوعة و الاتخاذ

6- بناء (انفعل):

ويفيد المطاوعة والامتزاج بالحدث، كقولنا كسرته فانكسر وحطمته فانحطم وغممته فاغتم وانغم[24]

ويمكننا توضيح ذلك كله في الجدول الآتي

الصيغة	المعنى
انفعـــل	يفيد المطاوعة
افتعـــل	يفيد المطاوعة والاتخاذ والمشاركة
تفعـــل	يفيد المطاوعة والاتخاذ والتكلف
تفاعـــل	يفيد المطاوعة والمشاركة والتساوي
فاعـــل	يفيد المطاوعة مع الغلبة في الحدث
افعـــل	يدل على الصفة مثل احمر
استفعـل	يفيد الطلب والتحول والتشبه بالشيء
افعوعـل	و تفيد المبالغة (تقوية المعنى و توكيده)

المصدر:

يأتي المصدر على غير الفعل لكن المعنى يبقى واحد بدون أي تغيير كقوله تعالى:«والله أنبتكم من الأرض نباتا»[25] ففي هذه الآية جاء الفعل على صيغة (أفعل) لكن المصدر جاء على صيغة (فعال) بدل (إفعال) وفي قراءة ابن مسعود:«و أنزل الملائكة تنزيلا»[26] ويرى سيبويه هنا أن معنى أنزل ونزل واحد، قال القطامي :

وخير الأمر ما استقبلت منه و ليس بأن تتبعـــه اتباعا

فالمعنى واحد سواء في الفعل تتبعت أو اتبعت.[27]

المصدر الرباعي:

ونلاحظ هنا أيضا فاعلية النشاط الصرفي في المصدر الرباعي في (فعللة) و (فعلال) نحو : دحرجته دحرجة وزلزلته زلزلة وكذلك زلزلته زلزالا وسرهفته سرهافا[28] كما في قوله تعالى:«زلزلوا زلزالا»

المصدر الميمي على وزن مفعل كقوله عز وجل: أين المفر[29] يريد أين الفرار.[30]

تلعب الفروق المعجمية دورا أساسيا في التأثير الدلالي الذي تحدثه في تشكيل المعاني الجمالية للصور البلاغية، وذلك من خلال الاستعمالات والسياقات المختلفة، فلو أخذنا على سبيل المثال كلمتي، حبط وهبط ، فنلاحظ أن الكلمتين تشتركان في الجذر (بط) تختلفان في الفونيم (ح) و (هـ) وهذا الفونيم هو الذي أكسب الكلمة معنى جديدا فالمعنى الأول في كلمة (هبط) هو النزول أي نزول يعقبه إقامة لقوله تعالى:«قلنا اهبطوا منها جميعا»[31].

وقوله تعالى أيضا« اهبطوا مصر»[32]، أما كلمة (حبط) فلها معنى آخر وهو ما فسد من الأعمال يقول الأزهري« الحبط وجع يصيب البعير في بطنه من كلأ يستوبله.. ،إذا عمل الرجل عملا ثم أفسده، حبط عمله ، وأحبطه ، صاحبه وأحبط الله أعمال من يشرك به»[33].

فالمعنى الأول هو الوجع والمعنى الثاني هو الفساد أي التحول من حال حسنة إلى حالة سيئة تحيلنا إلى معنى النزول والسقوط، قال تعالى:«وحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيمة وزنا»[34].

وقد يستعمل الشعراء بعض الألفاظ للدلالة على معان أخرى على سبيل التشبيه والاستعارة كما في قول الشاعر: [35]

تصيح الردينيات فينا وفيكم صياح بنات الماء أصبحن جوعا

الردينيات الرماح وبنات الماء المراد بها هنا الضفادع والمعنى أن وقع الرماح فيهم عند المطاعنة لها صوت مثل صوت بنات الماء وهي جائعة ، وتطالع في فروق اللغة أن الصياح«رفع الصوت بما لا معنى له وربما قيل للنداء صياح، فأما الصياح فلا يقال له نداء إلا إذا كان له معنى...والصياح لا يكون إلا للحيوان»[36]، ولذا نجد الشاعر شبه صراخ ونداء الأعداد تحت طعن الرماح بصياح الضفادع على سبيل التشبيه، أما على سبيل الاستعارة، فإن الرماح لا تصيح وإنها تحدث أصوات القتال كما عبر عن ذلك المتنبي:

بناها فأعلى والقنا تقرع القنا وموج المنايا حولها متلاطم

وهكذا فإن البنية المعجمية في صياح ألبست الصورة البلاغية معنى جديدا يشدنا انفعاليا بهول المعركة وقوة القتال.

ونتأمل كيف انتقل معنى الإصغاء إلى الميل على سبيل الاستعارة في قوله تعالى:«قد صغت قلوبكما»[37] فالبنية المعجمية صغت احتفظت في استعمالها الاستعاري بالمعنى المعجمي الذي وضع لها وهو طلب إدراك المسموع بإمالة السمع إليه، يقال صغا يصغوا إذا مال[38], وبالتالي يصبح معنى الآية مالت قلوبكما، وفي الصحاح صغا يصغو ويصغي صغوا أي نال وصغت النجوم أي مالت للغروب[39].

ونلاحظ في كلمة الدراية التي تفيد العلم لقول العجاج

يا رب لا أدري وأنت الداري *

وهي بمعنى الفهم ولنفي سوء عما يرد الإنسان فيدريه أي يفهمه لكن المعنى الأول الذي وضع لهذه البنية المعجمية هو اختل، يقول أبو هلال العسكري، وحكى بعض أهل العربية أنها مأخوذة من دريت إذا اختلت وأنشد:

يصيب فما يدري و يخطي فما درى

أي ما اختل فيه يفوته وما طلبه من الصيد بغير ختل يناله[40]

وفي الصحاح درى الصيد يدريه دريا ختله قال الشاعر: ابن الداعي النميري السكيت

فإن كنت لا أدري الظباء فإنني أدس لها تحت التراب الدواهيا

وقال ودريت فلانا أدريه دريا ختلته وأنشد :

فإن كنت قد أقصدتني إذ رميتني بسهمك فالرامي يصيد وما يدري

لقد استعاد الشعراء المعنى الأول لكلمة درى لتصبح جزءا من التعبير وإن تغيرات الدلالة إلا أن الرجوع إلى الأصل المعنى يؤكد

حقيقة النشاط الاستعاري الذي يعيد الشاعر تركيبه ما دام الأصل الأول للمعاني ويكمن ضمن هذا التعبير الاستعاري.

الهوامش

1 ينظر تامر سلوم ، نظرية اللغة والجمال في النقد العربي ، ص 68

2 ينظر سيبويه ، الكتاب 198/1

3 سورة النساء 162 .

4 ينظر تمار سلوم ، نظرية اللغة والجمال في النقد العربي ، ص 67

5 ينظر سيبويه ، الكتاب 1 /164

6 سيبويه ، الكتاب 166/1

7 سورة آل عمران الآية 185 .

8 سورة القمر ، الآية 27

9 سورة الأحقاف الآية 24

10 ينظر سيبويه الكتاب 1/ 180

11 سورة النساء الآية 162 .

12 ينظر سيبويه الكتاب 4 /256

13 المرجع نفسه13

14 الشاهد من كتاب سيبويه ، 198/1

15 الشاهد من كتاب سيبويه 1 /202

16 سورة سبأ الآية 19

17 سيبويه الكتاب 64/4

18 سورة يوسف الآية 34

19 سورة القمر الآية 12

20 سيبويه الكتاب 79/4

21 سورة النبأ الآية 28

22 سورة التوبة الآية 14

23 المرجع السابق 68/4

24 المرجع السابق 65/4

25 سورة نوح الآية 17

26 سورة الفرقان الآية 25

27 ينظر سيبويه الكتاب 82/4

28 ينظر المرجع نفسه 85/4

29 سورة القيامة الآية 10

30 المرجع السابق 87/4.

31 سورة البقرة ، الآية 38

32 سورة البقرة الآية 61

33 الأزهري ، تهذيب اللغة ، مادة «حبط»

34 سورة الكهف

35 ينظر ديوان الحماسة .

36 أبو هلال العسكري ، الفروق في اللغة ، الطبعة الخامسة ، دار الآفاق الجديدة 1981 ،ص 30 .

37 سورة التحريم الآية

38 المرجع السابق ،ص 81

39 الجوهري : الصحاح مادة صغا

40 أبو هلال العسكري ، الفروق في اللغة ، ص 84

طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية
وحدة الرغاية ـ الجزائر
2010
Achevé d'imprimer sur les presses
ENAG, Réghaïa
- Algérie -
Bp 75 Z.I. Réghaïa Tél: (021) 84 85 98 / 84 86 11

الإيداع القانوني : 2005-1513
ISSN : 1112-65-23 ردمد